هل جاهدت نفسك؟

أزهري أحمد محمود

مصدر هذه المادة :

الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com

دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموصـوف بصـفات الكمـال، العظيم ذي الجلال، والصَّـلاة والسَّـلام على النَّبي الداعي إلى الحق، وعلى آله وأصحابه أهل العزائم والصدق. وبعد:

لقد جعل الله تعـالى في هـذا الإنسـان أســراراً من بــدائع صــنعه.. وقفت دونها العقول.. وحارت فيها الألباب!

ومحاسـبة هـذا اللقـاء تقف بك عند واحد من تلك الأسرار البديعة..

النَّفس! ذلك السر الكــامن بين جــوانح الإنسان.. يقوده إلى موارد شتى.. فتارة هو داعيه إلى الخير.. وتارة يدعوه إلى الشر!

النَّفس! تلك العجيبة الفريدة!

النَّفس! بحر الأمــــاني.. ومســـــتودع الأسرار!

النَّفس! عدو في ثياب صديق!

(هل جاهـــدت نفســـك؟!) ومضة من ومضات: (سلسـلة المحاسـبة) وطليعة في درب محاسبة النَّفس.

أخي المســـلم: أتـــدري ما هو جهــــاد النفس؟!

إنَّه: جهادٌ ويحك إن هُزمت فيه!

إنَّه: قتالٌ يحتاج إلى سلاح وعُدَّة.. وبـأس شديد!

إنَّه: جهادُ عدو كامن بين جنبيك!

إنَّه جهـــــادٌ أشد من جهـــــاد أهل الكفر والإلحاد!

وأما معنى جهاد النفس:

قـال ابن عَلاَّن: «المجاهـدة: مفاعلة من الجُهْـد؛ أي الطاقــة، فــإن الإنســان يجاهد نفسه باســتعمالها فيما ينفعها حــالاً ومــآلاً، وهي تجاهده بما تركن إليه».

جهـادك نفسـك: أن تسـير بها في طريق الطاعـــــات.. وتجنبها طـــــرق المعاصي والشهوات..

والنفوس ثلاثة:

1- النفس الأمـــارة: وهي الـــتي تـــأمر باللــذات والشــهوات، وتحض على الأخلاق الذميمة.

2- النفس اللوامــة: وهي الــتي فيها من نــور الإيمــان ما ينبهها كلما غفلت فــوقعت في سيئة، فتلوم نفسها.

3- النفس المطمئنــة: وهي الــتي اكتمل فيها نـــــور الإيمـــــان، فرفضت كل ذميم،

واتصفت بالصفات الجميلة.

أخي المسلم: أين أنت من جهادك نفسك؟!

أين أنت من جهاد هو فرض عين على كل أحد؟!

ألا ترى أن جهاد الكفار هو فرض كفاية، ولكن جهاد النفس فرض عين؟!

إنها نفسك! إن لم تجاهدها فلن تأمن شرها! ولتكن البداية بمحاسبتها، ومعرفة عيوبها، ثم اسع جاهدًا في مجاهدتها ومخالفة هواها..

قال مالك بن دينار: (رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألسْتِ صاحبة كذا؟! ألستِ صاحبة كذا؟! ثم ذمَّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى، فكان له قائدًا).

وقال ميمون بن مهران: (لا يكون الرجل تقيًا؛ حتى يحاسب نفسه محاسبة شريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه).

فيا من أردت أن تعرف عدوك من صديقك.. هل علمت أن نفسك التي بين جنبيك أول أعدائك؟!

جاء في وصية أبي بكر الصديق إلى عمر

بن الخطاب رضي الله عنهما لما استخلفه: «إن أول ما أحـــــذِّرك نفسك الـــــتي بين جنبيك!».

وقـال يحـيى بن معـاذ:(أعـداء الإنسـان ثلاثـة: دنيـاه، وشـيطانه، ونفسـه، فـاحترس من الـــدنيا بالزهد فيهـــا، ومن الشـــيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات).

أخي المسـلم: هكـذا عـرف الصـالحون خطورة النفس.. وأنها أقرب عدو للإنسان.. فبـــادروا إلى مجاهـــدتها قبل كل جهـــاد! واحترسوا من شرورها..

فما أحـوج هـذه النفـوس إلى جهـاد يـردُّ عدوانها..

قال الحسن البصري: «ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك!».

* كان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة، ويصـــوم في الحـــر؛ حـــتى يخضر جســـده ويصفر! فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟! فيقول: كرامتها أريد!

* ولما رأت أم الربيع بن خـــثيم ما يلقى الربيع من البكـاء والسـهر، نادتـه: (يا بـني لعلك قتلت قتيلاً؟!قال: نعم يا أماه! قـالت: فمن هو حـــتى نطلب أهله فيعفـــوا عنـــك؟

فوالله لو يعلمـــون ما أنت فيه لرحمـــوك، وعفوا عنك! فيقول: يا أماه هي نفسي!).

أخي المسلم: لا تستحقرنَّ هذه النفس.. فكم أهلكت من خلائـف! لا تـزال بصـاحبها؛ تتمــنى عليه الأمــاني.. وتــدعوه إلى هواها وشهواتها.. حتى ترميه في المهالك!

وهل أهلك أهل الهوى إلاَّ تهاونهم بشرور أنفسهم؟!

فما أقـــــلَّ فلاحك يا ابن آدم إذا أطلقت زمامك لنفسك تقودك حيث شاءت!

أيها العاقـــل! أي ســـلاح هيأته لجهـــاد النفس؟!

فلا تقولن: إنها نفســي.. فما أحوجك إلى عُــدَّة وعتــاد؛ لتخــرج منتصــرًا من معركة حامية!

حقًا إنها معركة حاميــة! فإنك تواجه فيها عدوًا كامنًا بين جنبيك!

قال إبـراهيم بن علقمة لقـوم جـاؤوا من الغــزو: (قد جئتم من الجهــاد الأصــغر، فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟! قالوا: وما الجهـاد الأكبر؟! قال: جهاد القلب!).

قــال ابن رجب: (وكــذلك جهــاد العــدو البــاطن، وهو جهــاد النفس والهــوى، فــإن

جهادهما من أعظم الجهاد).
أخي المسلم: إنها النَّفسّ أفنى الصالحون العمر في مجاهدتها وتهذيبها.. ولن تجد في الأعمال أشق من جهادها!

فلا غرابة أن يكون جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.. وأهله هم أعلى الناس مقامًا..

سأل أحدهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الجهاد، فقال له: (ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها)

إن أقوى نصر تحرزه يا طالب النصر؛ هو انتصارك على نفسك! فهنيئًا لك يوم أن تركز راية النصر خَفَّاقة في أرض سيطرت عليها شهوات النفس وأهواؤها!
حقًا إن أحقَّ الناس بشرف النصر؛ رجل انتصر على نفسه.. وغلب هواه..
قال عمر بن عبد العزيز: «قد أفلح من عُصم من الهوى، والغضب والطمع».
وقيل ليحيى بن معاذ: (من اصح الناس عزمًا؟) قال: (لغالب لهواه).
أخي المسلم: إذا أردت أن تكون في صف المجاهدين حقًا؛ فجاهد نفسك..

عاصيًا لهواها.. ومائلاً عن طريق شـهواتها.. فــإن وُفِّقتَ إلى ذلك فــأنت يومها المجاهد حقًا!

قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبرُكُم بالمؤمن؟ من أمنه النَّاس على أمـــوالهم وأنفســـهم، والمسلم من سَلِمَ النَّاسُ من لسـانه ويـده، والمجاهـدُ من جاهد نفسه في طاعة اللــه، والمهاجر من هَجَرَ الخطايا والـذنوب) [رواه أحمد وغيره/ السلسلة الصحيحة: 549].

فنفسك يا ابن آدم عـدو مـتربص.. وأسد ينتظر الانقضـــاض! وإن الحـــازم حقًا من أيقظ جيش الحــزم.. وأعــدَّ كتائبه لجهــاد النفس!

فــاعلم أيها العاقل أنك لن تنتصر في أي معركـــة؛ إذا لم تنتصر في معركة جهــــاد نفسك.. بل إن جهــادك نفسك هو أصل كل جهاد!

قــال ابن القيم: (ولما كـان جهـاد أعـداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قـال النـبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد في طاعة اللـه، والمهـاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه». كان جهــاد النفس مقـــدَّمًا على جهـــاد العـــدو في

الخارج...).

فـافهم ذلـك أيهـا العاقـل.. وابـدأ بنفسك فاغزها قبل كل غزو.. وجاهدها قبل كل جهاد..

يا مَنْ يجاهدُ غازيًا أعداءَ
دين الله يرجُو أنْ يُعَانَ
هلاَّ غَشِيتَ النَّفْسَ غَزوًا إنَّها
أعْدَى عدوِّك كي تفوزَ
مهما عَنَيْتَ جهادَها وعنادَها
فلقد تعاطَيْتَ الجهادَ الأكبرَا

فيا طالبًا غرف الجنان.. ويا خاطبًا حورها الحسـان.. الـزم جهـاد النفس تفُـزْ بتلك الجنان..

أما سمعت أن الله تعـالى قـال في كتابه العزيز: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى * فَـإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات: 40، 41].

قـال ابن بطـال: (جهـاد المـرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قـال الله تعـالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى * فَـإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَـأْوَى**﴾ ويقع بمنع النفس عن المعاصـي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشـهوات

المباحة، لتتوافر لها في الآخرة).
أخي المسلم: إنك في زمـان كـثرت فيه الفتن.. وسيطرت الشهوات على النفوس.. واختلطت الحسـنة بالسـيئة.. فما أحوجك أيها المسـلم أن تتفقد نفسـك.. وتلجمها بلجام الدين.. وتحرِّكها بسوط المحاسبة..
فما أسـعدك بالطاعة في زمـان تلك صـفته!.. ولمن رزُق ذلك الشَّـرف أتت بشارة النبي ﷺ.
قـال النـبي ﷺ: «**العبـادةُ في الهَـرْج، كهجرة إليَّ!**» [رواه مسلم].

قال النووي: (المـراد بـالهَرْج هنا الفتنـة، واختلاط أمـور النَّاس وسـبب كـثرة فضل العبـادة فيـه؛ أن النـاس يغفلـون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلاَّ أفراد).
أخي المسـلم: إن النفس تحب هواها ورغائبها.. يعجبها أن تسير طليقة.. لا حـاجز يحجزها عن رغبتهـا.. وإن الموفق من ألجمها بلجـام الحـق.. وجاهـدها بسـيف الطاعـات.. وحاسـبها محاسـبة الغـريم لغريمه..
قال محمد بن المنكدر: (إني خلفت زيـاد

بن أبي زياد مولى ابن عياش وهو يخاصم نفسه في المسجد، يقول: أين تريدين؟! أين تذهبين؟! أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد؟! انظري إلى ما فيه، تريدين أن تبصري دار فلان، ودار فلان، ودار فلان؟! قال: وكان يقول لنفسه: ومالك من الطعام يا نفس إلاَّ هذا الخبز والزيت! ومالك من الثياب إلا هذان الثوبان! ومالك من النساء إلاَّ هذه العجوز! أفتحبين أن تموتي؟! فقالت: أنا أصبر على هذا العيش!).

أخي المسلم: لقد كانت تلك محاسبة رجل من الصالحين لنفسه.. ومجاهدة صادقة للنفس.. ونصرًا حاسمًا على هوى النفس.. إنها معركة لا يفوز فيها إلاَّ أولئك الصادقون؛ الذين جاهدوا أنفسهم جهادًا لا يعرف الهدنة!

فهنيئًا لكل فائز في معركة جهاد النفس.. ويا لبشراه بهذا النصر العظيم!

* لقد كان رسولنا ﷺ؛ أكمل الخلق جهادًا.. وأعلاهم درجة في كل فضيلة.. ومع أنه ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ فقد كان أكثر الخلق اجتهادًا في العبادة.. ومثابرة على الطاعات..

عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلَّى حتى انتفخت قدماه! فقيل له: أتَكَلَّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!**» [رواه البخاري ومسلم].

وبرسولنا اقتدى الصالحون.. وعلى رأس هؤلاء الصالحين صحابة رسول الله رضي الله عنهم وسادة التابعين، ومن جاء بعدهم من أولئك الكوكبة من صالحي الأمة..

* كان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة، وأخّر ليلة صلاة المغرب، حتى طلع كوكبان، فأعتق رقبتين!

* قال أبو الدرداء : «لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنْتَقى أطايب التمر!».

* وقال ثابت البناني: (أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلاَّ حبوًا!).

* وكان أبو مسلم الخولاني قد علَّق

ســوطًا في مســجد بيته يخــوف به نفســه، وكان يقول لنفســه: (قــومي فوالله لأزحفنَّ بك زحفًا حـتى يكـون الكلل منك لا مـني!). فإذا دخلت الفترة تناول سوطه، وضـرب به ســاقه! ويقــول: (أنت أولى بالضــرب من دابتي!).

* ودخل رجل على داود الطــائي، فقــال لـه: (إن في سـقف بيتك جـذعًا مكسـورًا). فقــال: (يا ابن أخي إن لي في الــبيت منذ عشرين سنة، ما نظرت إلى السقف!!).

* وكـــان كهمس بن الحسن يصـــلي كل يوم ألف ركعة، ثم يقول لنفسه: (قومي يــا مــأوى كل شــر!) فلما ضــعف اقتصر على خمســمائة، ثم كــان يبكي، ويقــول: (ذهب نصف عملي!).

أخي المســلم: هــذه باقــات من ســير الصالحين.. ونفحات من أريج العارفين!

أُناسٌ عرفوا مواطن الســعادة.. ومنــازل الخـيرات.. فعاشـوا تحت ظلال الطاعـات.. وتقلَّبُوا في رياض الصالحات!

فحاسب نفسك أيُّها العاقل: أين أنت من جهاد النفس؟!

هل جاهدت نفسك؟!

كيف أنت إذا دعتك نفسك إلى أمر فيه هواها؟!

هل أنت حينها من العاصين لهـا؟ أم أنت من المسارعين إلى هواها؟!

ما أشد حاجتك أيها الإنســان إلى عــزم تُشْهِرُهُ سيفًا على هوى النفس وشهواتها!

وأولى هـذه المحطـات: أن تقف بها عند الأمر والنهي، فتأتمر بما أمـرك الله تعـالى، وتنتهي عن نواهيه.

ثانيًــا: عــوِّد نفسك عصــيانها، ولا تُعطها مُناها فيما أحبَّت أو كرهت، تنقاد لك.

ثالثًـا: حاسب نفســك.. وتفقَّد صـحيفتها، ولا تهمل حسـابها فإنك إن حاسـبتها رجعت من قريب..

رابعًا: ولا تنْسَ أن تستصحب معك سـلاح الصــبر، فإنه ســلاح قــوي في مجاهــدة النفس، فعليك بالصبر في الأمور كلها [1].

وأخيرًا أخي المسـلم: فـإن جهـاد النفس أمــره عظيم، وهو حتم على كل مســـلم؛ ليكون من الفائزين بسعادة الدارين..

---

[1] (?) انظر رسـالتنا: تريـاق الأحـزان ، وراحة الأبـدان الصبر.

وفقـني الله تعـالى وإيَّاك إلى مرضـاته.. وجعلني وإيَّاك من الفائزين بنعيم جنَّاته..

والحمد لله تعالى، والصَّلاة والسَّلام على النَّبي محمد وآله والأصحاب..

* * * *